ترجمة خاصة
private translation

دون انتظار وزارة الداخلية تتجه المدن العربية إلى إحياء ذكرى بديلة

الدكتور مايكل ميلشتاين/ هآرتس

ترجمة: مصطفى إبراهيم

قبل ٢٠ عامًا، عندما كان عضوًا في مجلس مدينة حيفا، عمل أيمن عودة بجد لتغيير شارع صهيون إلى شارع الجبل حيث كان يسمى المكان حتى عام ١٩٤٨. كما تحدث عن حلمه أن كل شخص يدخل حيفا في المستقبل ويسأل عن عنوان معين فيجيبه بجملة "في شارع جمال عبد الناصر بين شارعي إدوارد سعيد ويوم الارض". لقد تحقق حلم عودة إلى حد كبير: الفضاء العام العربي في إسرائيل، وخاصة في المجتمعات ذات الأغلبية العربية، مليء بالشوارع والميادين والمؤسسات وكذلك الآثار المخصصة للشخصيات والأحداث والمفاهيم والأماكن المأخوذة من تاريخ الفلسطينيين، ولا سيما أولئك الذين لديهم صلة بالمجتمع العربي في إسرائيل.

كل من يتجول في التجمعات العربية اليوم يعبر شوارع تحمل أسماء عبد الناصر، يوم الارض، أو إدوارد سعيد، ويصادف الساحات التي نصب فيها النصب التذكاري لإحياء ذكرى النكبة أو مجزرة كفر قاسم أو يوم الأرض أو أحداث أكتوبر ٢٠٠٠. وهذا يسلط الضوء على ضوء آخر، الجدل القديم حول عدم قدرة المواطنين العرب على التعبير عن هويتهم الوطنية وترسيخ ذاكرتهم الجماعية في المجال العام.

هذه عملية استغرقت ٢٠ عامًا. قبل العام ٢٠٠٠، كان تمثيل الرموز الوطنية الفلسطينية في الفضاء العام العربي محدودًا، بما يواكب التردد والحذر اللذين اتسم بهما موقف الجمهور العربي تجاه السلطة. وكان التعبير الفريد والاستثنائي عن ذلك هو النصب التذكاري لضحايا يوم الأرض عام ١٩٧٦ الذي أقامه النحات عبد عبادي في سخنين عام١٩٧٨.

خلقت أحداث تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠٠ شرخًا حادًا بين المجتمع العربي والدولة، نتج عنه ظهور ظاهرتين متناقضتين في الرأي العام العربي طوال العقدين الماضيين: من جهة، تعزيز القوة الفلسطينية. الهوية الذاتية، غالبًا في تحدٍ للحكومة، ومن ناحية أخرى، التوق إلى اندماج أعمق في المجتمع والدولة، وهو أمر واضح بشكل خاص بين الشباب.

وتحت رعاية هذا الشعور الجماعي، بدأت فلسطنة الفضاء العام العربي في إسرائيل. يجد هذا الاتجاه تعبيرًا بارزًا في الآثار التي أقيمت منذ عام ٢٠٠٠ في المجتمعات العربية في إسرائيل وتمثل رموزًا أو أحداثًا تأسيسية من التاريخ الفلسطيني. جزء كبير من الآثار يتعامل مع النكبة، مثل النصب التذكاري لذكرى ضحايا عام ١٩٤٨ الذي أقيم في الطيرة ومزين بمنحوتات تشبه نبات الصبر (رمز "الصمود "، فكرة القبضة الفلسطينية القوية)، لافتة ضخمة معلقة بشكل دائم عند مدخل أم الفحم حيث يتم تخليد ذكرى الشهداء والذين استشهدوا في أم الفحم واللجون. أو تماثيل كبيرة من خريطة فلسطين التاريخية التي وُضعت في السنوات الأخيرة في ساحات مركزية في كفر مندا وبعنا في الجليل.

وفي العديد من التجمعات العربية، أقيمت مواقع تخليداً لذكرى المدنيين الذين قتلوا في الاشتباكات مع قوات الأمن الإسرائيلية، خاصة في يوم الأرض، وأحداث أكتوبر، وكذلك في مجزرة كفر قاسم. أقيمت مثل هذه المواقع في أم الفحم وكفر قاسم وجت وطمرة وكفر كنا، وعادة ما تذهب عائلات الشهداء والقادة إلى هذه المواقع وإلى قبور الموتى في مختلف أيام السنة المختلفة، ومن أبرز المواقع نصب تذكاري معدني كبير أقيم في الطيبة بمناسبة يوم الأرض، وعليها نقش عليها أسماء القرى التي هدمت عام ١٩٤٨، بالإضافة إلى ذلك، تمت العناية بمقابر شهداء ما قبل عام ١٩٤٨ ممن منحوا مكانة الرموز الوطنية، ومن بينهم الزعيم الإسلامي عز الدين القسام وثلاثة من الشهداء الذين أعدموا من قبل البريطانيين في عام ١٩٢٩. ودفنوا في عكا. من الوسائل البارزة الأخرى لترسيخ الذاكرة الجماعية في الفضاء العام تسمية الشوارع.

يوجد اليوم في المدن والقرى العربية العديد من الشوارع التي سميت على اسم قرى، معظمها مجاورة، تم تدميرها عام ١٩٤٨ كما استوعبت العديد من النازحين. أبطال فلسطينيون وطنيون، وخاصة أولئك الذين عملوا خلال فترة الانتداب وعملوا ضد البريطانيين وضد الاستيطان بقيادة القسام (فسيفساء ضخمة مكرسة لثورة ١٩٣٦-١٩٣٩ موضوعة في وسط باقا الغربية)؛ مبدعين فلسطينيين، على سبيل المثال، الشاعران محمود درويش وفدوى طوقان أو رسام الكاريكاتير ناجي العلي، صاحب شخصية حنظلة (ما يعادل "شرليك")، مشاهير الفنانين العرب مثل المطربين أم كلثوم وفيروز والشعراء جبران خليل جبران ونزار قباني. الأحداث التأسيسية في التاريخ الفلسطيني (مجزرة دير ياسين والعمل الانتقامي في قيبيا عام ١٩٥٣)، وزعماء عرب مثل ناصر وعبد الكريم قاسم رئيس العراق ١٩٥٨-١٩٦٣ الذي قاتل عام ١٩٤٨ في منطقة المثلث ويحتفل باسمه في الشارع الرئيسي في كفر قاسم.

ترجمة خاصة
private translation

الأسماء الجديدة مدمجة مع الأسماء القديمة "المحايدة" في جوهرها والتي سادت في المجتمعات العربية في إسرائيل لعقود من الزمن، والتي تمثل هوية عربية أو إسلامية لا تجسد تحدياً للحكومة. في هذا السياق، مشاهير القادة والفلاسفة والشعراء من الأيام الأولى للإسلام والعصور الوسطى (بما في ذلك صلاح الدين وبيبرس)، والمدن في جميع أنحاء العالم العربي أو تلك الموجودة في إسبانيا التي فقدت الإسلام (على سبيل المثال غرناطة وقرطبة)، فضلا عن ثمار ونباتات الأرض. إلى جانب هذه الشوارع، هناك العديد من الشوارع التي لا تزال مكتوبة بالأرقام أو لم يتم وضع علامات عليها على الإطلاق، وهي ظاهرة تبرز بشكل رئيسي في القرى البدوية في النقب.

غالبًا ما تعكس هذه العملية فجوة بين السلطات المحلية ووزارة الداخلية. في هذا السياق، هناك موقف غريب تدعي فيه وزارة الداخلية أنها لم توافق على تسمية شوارع معينة، على سبيل المثال باسم عبد الناصر، ولكن يظهر الاسم على اللافتات المنشورة في القرى العربية وكذلك في الوزارة. قواعد بيانات أسماء الشوارع الداخلية وعلى الخرائط الموجودة على مواقع بيزك وجوجل. هناك أيضًا حالات معاكسة حيث تظهر الأسماء على الخرائط ولكن لا يتم وضع لافتات مقابلة في المنطقة. على سبيل المثال، على خريطة بلدية شفا عمرو، هناك ثلاثة شوارع سميت على اسم المشاركين الثلاثة في (أعمال شغب شفا عمرو)، ومع ذلك، لا يوجد ما يشير إلى ذلك في الميدان. وأحياناً تأتي الفجوة نفسها إلى احتكاك حاد، بعد قرار بلدية جت قبل سنوات قليلة تسمية شارع باسم ياسر عرفات، الأمر الذي أثار رد فعل حاداً من الدولة وأدى إلى طيه من قبل البلدية.

الحدائق الوطنية والمحميات الطبيعية هي أيضًا ساحة للنضال من أجل ذاكرة الماضي. منذ عدة سنوات كان هناك نقاش ساخن حول ما إذا كان يجب كتابة الاسم الأصلي للوديان باللغة العربية أو كتابة الاسم بالعبرية. هناك أماكن يُشار فيها إلى الاسم العربي، وبعضها تتم كتابة الترجمة الصوتية فيها باللغة العبرية (في بعض الأماكن، تمت كتابة الاسم العربي الأصلي في البداية، ولكن تم استبداله لاحقًا بالاسم العبري باللغة العربية، على سبيل المثال وادي ألكسندر المعروف باسم " الإسكندر "أو" اسكندرونا "بالعربية)، وهناك أيضًا أماكن يكتب فيها الاسم في كلا الشكلين، على سبيل المثال وادي سورك، واسمه بالعربية وادي روبين. كما تصاحب الكتابة على لافتات المرور خلافات مماثلة، لا سيما على طرق المواصلات (أورشليم، القدس أو يافو، يافا).

إلى جانب احتفال "مؤسسي" باسم البلديات العربية، هناك أيضًا احتفال "من الأسفل" نتيجة مبادرات محلية. من الممارسات الشائعة تسمية المحلات على اسم البلدات التي جاء منها أصحابها أو أحفادهم، مثل المحلات التي تُدعى سفوريا – صفورية اليوم – والتي تعمل في جميع أنحاء الناصرة. بالإضافة إلى ذلك، هناك آثار بناها مواطنون عاديون، مثل تمثال على شكل مفتاح نصبه سكان حي السفارة (مغتربون من صفورية) في الناصرة عام ٢٠١٤ (ودمره مجهولون)، وجدران في شوارع يافا مزينة بالرموز الوطنية الفلسطينية. في بعض المحليات، تأخذ هذه العملية لونًا إسلاميًا، كما هو الحال في كفر قاسم، حيث سميت ساحة باسم حسن البنا، مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، ووضعت في وسطها لافتة تحمل صورته.

يتم الترويج لفلسطينية الفضاء العام في التجمعات العربية بسهولة نسبية، ولكن في المدن المختلطة تواجه هذه الخطوة صعوبات. وكجزء من ذلك، تم حظر المبادرات لتسمية الشوارع بأسماء الشخصيات السياسية والفنانين الفلسطينيين أو إعادة أسماء الشوارع العربية الأصلية.

في يافا، أحبطت مقترحات تسمية الشوارع على اسم فدوى طوقان وغسان كنفاني وأم كلثوم وناصر.

وفي الرملة، تم منع محاولة من قبل السكان العرب لاستبدال بياليك ومقاتلي الغيتو بإميل حبيبي وتوفيق زياد، الفنانين العرب الإسرائيليين الذين خدموا أيضًا كأعضاء في الكنيست نيابة عن الحزب الشيوعي.

في تموز ٢٠٢٠، ثار جدل عام عاصف بعد قرار بلدية حيفا تسمية شارع باسم أم كلثوم. وأشاد ممثلو حداش في مجلس المدينة بالخطوة ووصفوها بأنها "إنجاز للعرب"، ومن ناحية أخرى أثارت انتقادات حادة بين شخصيات يمينية زعمت أن المغنية أبدت خلال حياتها عداءً عميقًا لإسرائيل ودعوا إلى ذلك.

انقراض العديد من الآثار التي أقيمت على يد السلطات، وكان هذا هو مصير تمثال نصب في عكا عام ٢٠١٨ تخليدا لذكرى غسان كنفاني الكاتب الناطق باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وكذلك نصب تذكاري صغير من الحجر تم وضعه مؤخراً بمبادرة من لجنة المتابعة تخليداً لذكرى قرية اللجون بالقرب من مفرق مجيدو. لذلك، في دولة إسرائيل، يظهر تدريجياً فضاءان متوازيان للذاكرة، يسود بينهما تباين منظم حاد.

ترجمة خاصة
private translation

بالنسبة للجمهور العربي، فإن معظم الرموز التي تمثل الذاكرة الجماعية للمجتمع اليهودي – خاصة تلك المتعلقة بالأنظمة الإسرائيلية، وخاصة حرب الاستقلال – تجسد تذكيرًا دائمًا بالصدمات القومية، كما يتضح من الشعار الذي تم ساد الجمهور العربي منذ عقود: "يوم استقلالهم هو يوم مصيبتنا" (يوم استقلالهم يوم نكبتنا). من ناحية أخرى، في نظر الكثيرين في المجتمع اليهودي، فإن مشاريع إحياء الذكرى التي يروج لها الجمهور العربي والتي ترفع فيها الرموز الوطنية الفلسطينية على أنها معجزة تعكس رفضًا للاندماج في الدولة وحتى تحديًا للمؤسسة الحاكمة.

يخلد المجتمعان معظم رواياتهما المتناقضة في مساحات جغرافية منفصلة: يعيش ٩٠٪ من العرب في إسرائيل في تجمعات متجانسة وأقلية فقط في مدن مختلطة. نتيجة لذلك، حتى يومنا هذا، لم يكن هناك احتكاك بين المجتمعين أو احتجاج من قبل مجموعة واحدة على المواقع التذكارية التي أقامها المجتمع الآخر، كما هو واضح في السنوات الأخيرة في موقف الجمهور الأمريكي الأفريقي في الولايات المتحدة. تجاه تماثيل قادة الجيش الجنوبي وقادة الكونفدرالية. التوترات تنكشف أهمها، كما ذكرنا، بشكل رئيسي في المجتمعات المختلطة حيث ترى الأغلبية اليهودية السعي إلى ترسيخ الذاكرة الفلسطينية في المجال العام كتهديد، ويضاف إلى التوتر العميق القائم بالفعل والذي تم التعبير عنه بكامل قوته في أحداث مايو ٢٠٢١.

إن الرموز الوطنية الفلسطينية التي أقيمت في الفضاء العام العربي في إسرائيل تعبر في جوهرها عن الاغتراب تجاه المؤسسة الحاكمة، لكن من الممكن أن يساهم تأسيسها إلى حد ما في تخفيف التوترات. وهذا يسمح للأقلية العربية في إسرائيل بالتعبير عن هويتها الوطنية وروايتها فيما يتعلق بالصراع مع مجموعة الأغلبية، وكما ذكرنا أيضًا لتشكيل الفضاء العام وفقًا لذلك. ومع ذلك، وبنظرة أعمق، يتعمق الشك فيما يتعلق بإمكانية تكوين هوية إسرائيلية فائقة يتشاركها اليهود والعرب والتي ستتضمن رموزًا وذكريات وروايات وأبطالًا وقيمًا ورؤية وأهدافًا يمكن أن يتبناها كلا الشعبين. دون محو أو طمس هوياتهم الفريدة. على الأقل في الوقت الحالي وفي المستقبل المنظور، تبدو فرص ذلك ضئيلة.

من الممكن إثارة أمل شديد الحذر بأن التسوية السياسية في السياق الفلسطيني وإعادة تصميم العلاقة بين الدولة والمواطنين العرب داخل إسرائيل ستسمح للمجموعتين بتطوير حوار أكثر ثباتًا تجاه التاريخ. من خلالها، ربما يكون من الممكن تطوير رموز مشتركة لليهود والعرب، تكون موجهة نحو أهداف المستقبل بدلاً من أن تكون متأصلة في ذكريات الماضي.

ترجمة خاصة
private translation

يشغل الدكتور مايكل ميلشتاين منصب رئيس منتدى الدراسات الفلسطينية في مركز موشيه دايان في جامعة تل أبيب وباحث أول في معهد السياسة والاستراتيجية (IPS) في جامعة رايخمان.

تعقيب المترجم:

تدور فكرة المقال حول الرواية السردية للفلسطينيين في الداخل (عرب ٤٨)، والتمسك بالرواية التاريخية التي تؤكد حق الفلسطينيين بارضهم، من خلال التمسك بالهوية الفلسطينية عبر تخليد الرموز الوطنية من شهداء، والاحتفاء بذكرى النكبة والشهداء، وتخليد أسمائهم، وأسماء المدن والقرى المهجرة، في معركة البقاء وتحدي سلطات الاحتلال التي تحاول طمس ومحو الهوية الفلسطينية وارتباطها بهويتها المسيحية والإسلامية والعربية، وتخليد الزعماء المسلمين والعرب الذين خاضوا معارك في فلسطين في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي قبل النكبة.

وهذا ما يزعج دولة الاحتلال التي لم تستطع تغيير معالم فلسطين التاريخية، ويحاول الكاتب القول أن معركة الرواية الفلسطينية انتصرت، وقدرة الفلسطينيين على الحفاظ على هويتهم خاصة في صفوف الشباب. كما يعبر عن عدم قدرة دولة الاحتلال طمس الرواية من خلال تطبيع العلاقة ونسيان التاريخ والتأسيس للمستقبل وتطوير رموز مشتركة لليهود والعرب، تكون موجهة نحو أهداف المستقبل بدلاً من أن تكون متأصلة في ذكريات الماضي.